

أدب المقاومة الوطنية في كتاب (في قلب المعركة) للشيخ محمد البشير الإبراهيمي

The literature of National Resistance in the Book (In the Heart of the Battle) by Sheikh Muhammad Al-Bashir Al-Ibrahimi

أ.د/ يوسف بن نافلة

جامعة حسية بن بوعلي – الشلف (الجزائر)

youcef080@live.fr

تاريخ القبول: 2022/09/30

تاريخ الإرسال: 2022/08/13

الملخص:

تتناول هذه الورقة الحديث عن الحركة الوطنية، ودورها في استقلال الجزائر، والعلاقة المتينة بين الجانب الديني، والجانب السياسي. بعدها أتناول موضوع الأدب التحرري في الجزائر، وأهم أعلامه، مع التركيز على دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في تفويض مخططات الاحتلال الفرنسي للجزائر، والسعي بكل الطرق لمناهضة مكائده الشيطانية، وقد اخترت كتاب (في قلب المعركة) مدونة تطبيقية للشيخ العلامة محمد البشير الإبراهيمي، الرجل المخلص لهويته، وأمته ودينه، محاولاً قراءة الكتاب قراءة نقدية تحليلية استنباطية متبعماً فيه أهم محطات المقاومة الوطنية ومحاربة مخططات فرنسا الماكرة. ثم أصل في الأخير إلى خاتمة أجمل فيها أهم النتائج التي توصلت إليها، مع ذكر بعض التوصيات.

الكلمات المفتاحية: أدب جزائري، المقاومة الوطنية، الهوية الوطنية، إمام البيان، في قلب المعركة.

Abstract:

This paper deals with the discussion of the national movement, its role in the independence of Algeria, and the strong relationship between the religious side and the political side. In all ways, to oppose his satanic plots, and I chose the book (In the Heart of the Battle), an applied blog by Sheikh Muhammad al-Bashir al-Ibrahimi, the man loyal to his identity, his nation, and his religion, trying to read the book a critical, analytical, and deductive reading, tracing in it the most important stations of the national resistance and fighting France's cunning schemes. Finally, the paper ends with a conclusion summarizing the most important results and some recommendations.

Keywords: Algerian literature, national resistance, national identity, Imam al-Bayan, in the heart of the battle.

مقدمة:

من المتعارف عليه لدى المؤرخين أنّ من طبائع الاستبداد أن يذلّ الشعوب، ويسلّط عليهم أقسى أنواع الاستعباد وقد ولدوا أحرارا، وهذا الذي وقع مع الاحتلال الفرنسي لبلادنا الجزائر، بيد أنّ الله تعالى قيّض رجالاً مخلصين لدينهم وأمتهم، ولغتهم فتصدّوا بكل ما أوتوا من قوة لطرد أجنبي احتلال عرفته البشرية على وجه المعمورة، ومن هؤلاء الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ومنهم العلامة الشيخ "صقر الجزائر" محمد البشير الإبراهيمي.

أمّا ما يتعلّق بالإشكال الذي أودّ أن أطرحه في هذه الورقة البحثية فيتمثل في الإجابة عن الأسئلة الآتية:

- 1- ما طبيعة الاحتلال الفرنسي الكولونيالي للجزائر المحروسة ؟
- 2- ما دعائم الثقافة الوطنية الأصيلة لدى الحركة الإصلاحية ؟
- 3- ما موقف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من الثورة التحريرية المباركة ؟
- 4- ما دلالة أدب المقاومة الوطنية لدى الشيخ الإبراهيمي من خلال إنتاجه الفكري ؟

● **جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودعمها للثورة التحريرية:**

لقد أصدرت جمعية العلماء بياناً تاريخياً دعمت فيه الثورة التحريرية في الثاني من نوفمبر سنة 1954م، كان من أعضاء هذا البيان الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ومندوبها الشيخ الفضيل الورتلاني، عنوانه "مبادئ الثورة في الجزائر"، ووُزّع على الصحافة المصرية ووكالات الأنباء العالمية⁽¹⁾.

أما عن موقف الجمعية من ثورة 1954 ومساندتها فيمكن تلخيصه فيما يأتي:

- 1- بلاغ من جمعية العلماء يوم 18 جوان 1954م، ترفض فيه الإصلاحات التي دعت إليها السلطات الفرنسية، وتدعو الشعب إلى التكتاف، والوحدة لحلّ القضية الجزائرية حلاً عادلاً شاملاً.

2- بيان من مكتب الجمعية بالقاهرة، والشيخ الفضيل الورتلاني مدير المكتب، وتحت عنوان "إلى الثائرين الأبطال" يوم 2 نوفمبر 1954م.

3- بعدها بأيام يُصدر لـ "الورتلاني" باسم الجمعية بياناً ثانياً عن ثلاث صرخات.

4- يوم 15 نوفمبر يصدر باسم الشيخ البشير الإبراهيمي بياناً تاريخياً تحت عنوان: "نداء إلى الشعب الجزائري المجاهد نعيذكُم بالله أن تتراجعوا..." بتوقيع رئيس الجمعية، ونائبه.

5- ميثاق جبهة تحرير الجزائر في 4 فبراير 1955، ترفض فيه إصلاحات فرنسا.

6- ميثاق جبهة تحرير الجزائر في 17 فيفري 1955، وبه توقيعات كثير من زعماء الجزائر أولها توقيع الشيخ الإبراهيمي.

7- نداء إلى الضمير الفرنسي في 25 فيفري 1955، وقَّعه 300 معلّم من مدارس الجمعية.

8- بلاغ من جمعية العلماء المسلمين بتاريخ السابع جانفي سنة 1956، حيث قطعت فيه الطريق على العدو، ومسألة التفاوض⁽²⁾.

وقد كلّفت قادة الثورة الجزائرية عدداً من رجال جمعية العلماء برئاسة مكاتبتها الرسمية في الأقطار العربية ومن هؤلاء الذين مثّلوا جبهة التحرير الوطني ثم الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية نجد الآتي:

1- تعيين أحمد توفيق المدني ليتولّى شؤون جبهة التحرير في القاهرة بجمهورية مصر العربية.

2- عُيِّن الشيخ خير الدين ممثلاً لجبهة التحرير الوطني في المملكة المغربية.

3- عُيِّن أيضاً كلٌّ من شيخ حسين والغسيري كممثلين لجبهة التحرير بالخارج الأول بالمملكة العربية السعودية، والثاني بالإمارات العربية المتحدة⁽³⁾.

ويذكر الدكتور تركي رابح أنّ "الواقع هو أنّ سياسة فرنسا في الجزائر كانت تقوم منذ البداية على أربعة أسس، أو قواعد التزمت بها، ولم تحد عنها قيد أمثلة حتى خرجت من الجزائر سنة 1962، وهذه الأسس هي:

1- التفكيك.

2- التجهيل.

3- التنصير.

4- الفرنسة⁽⁴⁾.

• صورة المقاومة الوطنية في الأدب الجزائري :

يذكر الأستاذ عبد الملك مرتاض أنّ النثر الفني في فترة ما من تاريخ الأدب العربي الطويل، وخصوصاً في عصور ما قبل الإسلام دون الشعر مكانة، وأهون في التلقي شأنًا إلى أن جاء الله بالإسلام، ونزل القرآن العظيم الذي هو ليس شعراً، ولكنه ليس نثراً تقليدياً أيضاً خالصاً ففتّح عيون العرب الفصحاء على بلاغة جديدة لم يألفوها من قبل وواجه فصحاءهم بنثوج من العربية عجاب تحدّاهم بأن يأتوا بسورة من مثله في مثله فبهتوا، وأذعنوا لأنهم لم يكونوا عرفوا لها أشباهاً، ولا نظائر فيما كانوا يعرفون من قبل من زُخرف القول، وهم الفصحاء الأبيّناء.

ثم واکب ذلك بداية العهد الجديد الذهبيّ لجنس الخطابة فبدأ شأن الشعر يتقلّص قليلاً قليلاً، وإن ظلّ أثناء ذلك هو الأدبي العربي الأول -خصوصاً في مجالات المدح والهجاء والوصف- وذلك على الرغم من أنّ المقامة الفنيّة التي ظهرت في النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة على يد بديع الزمان الهمداني استطاعت أن تُنسبهم في تقليص دور القصيدة ووظيفته لدى المتلقّين⁽⁵⁾.

ويواصل الأستاذ عبد الملك مرتاض حديثه عن صورة النضال والمقاومة الوطنية في الأدب الجزائري الحديث قائلاً: "ونحن حين جئنا ننال صورة المقاومة الوطنية في الأدب الجزائري الحديث (1830-1962) لم نكد نجد في المرحلة من عهد الاستعمار لفرنسي أيّ دور يذكر للنثر الفنيّ منه، فيم عدا بعض الرسائل المتفرقة العدد هنا وهناك، وكان يجب أن ننتظر إلى أن تضع الحرب العالمية الأولى أوزارها لتبدأ الكتابات النثرية الجادة مثل المقالة الصحفية، والمحاولات القصصية، وبعض الخطب التي كانت تُلقى في المواقف العامة وخصوصاً لدى عبد الحميد بن باديس، وآخرين من أعضاء لعلماء المسلمين الجزائريين مثل ما وقع في مؤتمر الجمعية في النادي الترقّي بمدينة الجزائر عام 1935م.

وهناك بدأ الكتاب يُفْلَتون من قيود الشعر فأنشأنا تقرأ المذكرات المتعلقة بالرحلات الداخليّة، والخارجيّة، ومن الذين عالجوا هذه الأشكال الأدبيّة النثرية على عهد الحركة الوطنية عبد الحميد بن باديس الذي تحدّث عن رحلته إلى الغرب الجزائري، وقد نشرت في

مجلة الشهاب سنة 1931، محمد العسيري الذي تحدّث عن رحلته الطويلة إلى المشرق العربي وقد نُشرت في جريدة البصائر سنة 1933، ومحمود بوزوزو الذي كتب انطباعه عن البرلمان الفرنسي، وقد زاره في رحلته إلى باريس، وقد نشرها في البصائر عام 1947، وحزمة بوكوشة الذي زار المغرب الأقصى فمكث فيه أربعين يوماً فلخص أطوار زيارته كتابة، وقد نشره في البصائر عام 1949⁽⁶⁾.

ومن كتب في السيرة الذاتية في الأعوام الثمانية التي سبقت اندلاع ثورة التحرير محمد البشير الإبراهيمي، وأبو مدين الشافعي، وإسماعيل العربي، وعثمان سعدي. وكذلك توسّعت مجالات الكتابات النثرية، وتعدّدت وظائفها، فانتقل المجتمع الثقافي من سلطة الشعر إلى سلطة الكتابة بعامّة فبدأ الكتاب الجزائريون يكتبون المقالة الأدبية المتألّقة والقصة الجميلة الهادفة، والمقالة الصحفية الممتعة، فاستحالت الوظيفة الأدبية التعبيرية التي كانت مقصورة على الشعر إلى النثر الفني، فألفينا محمداً السعيد الزاهري يكتب أول محاولة قصصية في تاريخ الأدب الجزائري الحديث ينشرها بجريدة الجزائر عام 1935 تحت عنوان (فرانسوا والرشد) يتناول فيها مسألة المساواة السياسية بين الجزائري والأوروبي في الجزائر بحيث لا ينبغي أن يكون أيّ فريق في سلم القيم الإنسانية التّبيلة بين جزائري مسلم وفرنسي أو إسباني من أبناء الاستعمار في الجزائر⁽⁷⁾.

ولعلّ من أجل ما كتب عبد الحميد بن باديس في المقالة السياسية المقاومة تلك المقالة التي ردّ فيها على فرحات عباس، ومجموعة النواب الجزائريين الذين كانوا مفتونين بفرنسا حتى أعماهم حبّها عن أن يروا الجزائر العظيمة فأنكروا وجودها، وكان يتزعم تلك الفكرة الشّقيّة فرحات عباس الذي رجع عنها فيما بعد على كلّ حال، فقد خاطبهم ابن باديس في مقالة سياسية عجيبة نشرها في مجلة "الشهاب" بعنوان "كلمة صريحة" ويقول الشّيخ في بعضه مخاطباً أولئك النواب، بعد أن كان فرحات عباس زعم أنه بحث عن الجزائر في التاريخ فلم يجدها، وبحث عنها في كلّ مكان فلم يظفر لها على أثر: "إنّا نحن فتّشنا في صحف التاريخ، وفتّشنا في الحالة الحاضرة فوجدنا الأمة الجزائرية المسلمة موجودة كما تكوّنت كلّ أمم الدّنيا. وهذه الأمة تاريخها الحافل بجلال الأعمال، ولها وحدتها

الدّينية، واللّغوية، ولها ثقافتها الخاصّة، عوائدها، وأخلاقيها، بما فيها من حسن، وقبيح شأن كلّ أمة في الدّنيا .

ثمّ إنّ هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تريد أن تكون فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا، ولو أرادت بل هي أمة بعيدة عن فرنسا، كلّ العد في لغتها، وفي أخلاقها، وفي عنصرها، وفي دينها، لا تريد أن تندمج، ولا وطن محدود معيّن، هو الوطن الجزائري بحدوده الحالية المعروفة...⁽⁸⁾.

يتّضح لنا مما سبق ذكره أنّ أعضاء جمعية العلماء المسلمين قد تصدّوا بكل ما أوتوا من قوة، وعزيمة للاحتلال الفرنسي الظالم المستبدّ، ذلك أنه من المتعارف لدى المؤرخين وجهابذة الفكر، وأساطين المعرفة أن الاحتلال متى ما تمكّن من أي بلد في العالم، وجلس على صدره، فإنه يذيقه الويلات، والمذلة، والهوان، والاستعباد، وهذه حقيقة ساطعة، لا جدال فيها أكّدها التاريخ، وتجربة احتلال الشعوب والأوطان.

● أدب المقاومة الوطنية لدى الشيخ محمد البشير الإبراهيمي:

يذكر الدكتور عبد الملك بومنجل أنّ "الشيخ محمد البشير الإبراهيمي أحسن بالمسؤولية الكبرى الملقاة على عاتقه تجاه الظلام الاستعماري البغيض الذي كان الشعب الجزائري يعيش تحت ظلّ سواده، فنصّب نفسه مدافعاً عن الأمة، مكافحاً بقلمه، ولسانه ضدّ عدوّها، يكشف جرائمه، ويفضح أساليبه الدنيئة، وتصوير حقيقته البشعة، وهدم دعاويه الكاذبة حتّى يعرف الشعب عدوه على حقيقته، ويصره على شراسته، ونفاقه فيأتي الخضوع له، ويسعى للقضاء عليه.

ولم يكن الإبراهيمي رئيس حزب، ولا مناضلاً سياسياً ينحصر كلّ همّه في السياسة ولكنّه كان ممثلاً للإسلام منطقاً من حقيقته الكاملة، وتعاليمه الشاملة التي تشغل الإنسان بمختلف مجالاتها، ولذلك لم يكن يكتب في السياسة، وتجرّ فيها المقالات الطويلة هوية وتخصّصاً، أو حبّاً للمجادلة، إنما هي رسالة يحملها، وأمانة يؤديها في حقّ مجتمعه وأمتّه لأنّ الإسلام يقتضي ذلك كما يقول: "نحن سياسيون منذ خلقنا لأننا مسلمون منذ

نشأنا، وما الإسلام الصحيح بجميع مظاهره إلا السياسة في أشرف مظاهرها، وما المسلم الصحيح إلا المرشح الإلهي لتسيير دفتها أو لترجيح كفتها، فإذا نام النائمون منا حتى سلبت منهم القيادة، ثم نزعت منهم السيادة فنحن إن شاء الله كفارة الذنب، وحبل الطنب. نحن سياسيون طبعاً، وجيلة، ونحن الذين أيقظنا الشعور بهذا الحق الإلهي المسلوب ... نحن سياسيون لأن ديننا يعدّ السياسة جزءاً من العقيدة، ولأنّ زماننا يعتبر السياسة هي الحياة، ولأنها آية البطولة ... ولأنّ السياسة نوع من الجهاد، ونحن مجاهدون بالطبيعة فنحن سياسيون بالطبيعة..."⁽⁹⁾.

والتأمل في كتابات الإبراهيمي السياسية يجدها تمثل ذلك الصراع العنيف الذي كان قائماً بين جمعية العلماء، وإدارة الاحتلال، والذي شمل ميادين متنوعة.

ومن الكتب النفيسة المهمة التي شدّت انتباهي للعلامة محمد البشير الإبراهيمي، والتي تدلّ على مقاومته الشرسة للعدو الفرنسي وفضائعه الخبيثة، ودفاعه عن مبادئ الجمعية، وحقّ الشعب في التمتع بشخصيته السياسية، والحضارية خارج البوتقة الاستدمارية الفرنسية كتاب "في قلب المعركة" وفيه نجد نفحات إيمانية بوجوب مقاومة الاحتلال، وهذا فرض عين على كلّ جزائري عاش ظلمه، واكتوى بنيرانه، ومن تلك المواضيع السامية المؤثرة في كتابه نجد (نداء إلى الشعب الجزائري المُجاهد تُعيدكم بالله أن تتراجعوا) حيث يقول فارس البيان محمد البشير الإبراهيمي: (بسم الله الرحمن الرحيم ... أيها المسلمون الجزائريون: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

حيّاكم الله، وأحيا بكم الجزائر، وجعل منكم نورا يمشي من بين يديها ومن خلفها. هذا هو الصوت الذي يسمع الآذان الصمّ، وهذا هو الدواء الذي يفتح الأعين المغمضة وهذه اللغة التي تنقذ معانيها إلى الأذهان البليدة، وهذا هو المنطق الذي يقوم القلوب الغُلف، وهذا هو الشعاع الذي يخترق الحُجب، والأوهام.

كان العالم يسمع ببلايا الاستعمار الفرنسي لدياركم، فيعجب كيف لم تثوروا وكان يسمع أنينكم، وتوجعكم منه، فيعجب كيف تؤثرن هذا الموت البطيء، على الموت العاجل المريح، وكانت فرنسا تسوق شبابكم في غير شرف، ولا محمّدة، بل في سبيل

فرنسا، وتوسيع ممالكها، وحماية ديارها، ولو أنّ تلك العشرات من الآلاف من أبنائنا ماتوا في سبيل الجزائر، لمأثوا شهداء، وكنتم بهم سعداء.

أيها الإخوة الجزائريون: اذكروا غدر الاستعمار، ومماطلته.

احتلت فرنسا وطنكم منذ قرن وربع قرن، وشهد لكم التاريخ، بأنكم قاومتوها مقاومة الأبطال، وثرتم عليها مجتمعين، ومتفرقين، نصف هذه المدة. فما رعت في حربها لكم ديناً، ولا عهداً، ولا قانوناً، ولا إنسانية، بل ارتكبت كلّ أساليب الوحشية، من تقتيل النساء، والأطفال، والمرضى، وتحريق القبائل كاملة، بديارها، وحيواناتها، وأقواتها.

ثم حاربتكم معها، وفي صفها، وفي سبيل بقائها نصنف هذه المدة ففتحت بأبنائكم الأوطان، وقهرت بهم أعداءها، ورحمت وطنها الأصلي، فما رعت لكم جيلاً، ولا كفأتم بجمال، بل كانت تنتظر بكم، ثم تخذلكم، وتحيا بأبنائكم، ثم تقتلكم، كما وقع لكم معها في شهر مايو سنة 1945، وما كانت قيمة أبنائكم الذين ماتوا في سبيلها، وجلبوا لها النصر إلاّ أنّها نفشت أسماء بعضهم في الأنصاب التذكارية، فهل هذا هو الجزاء؟

طالبتموها بلسان الحق، والعدل، والقانون، والإنسانية من أربعين سنة بأن ترفق بكم وتنفس عنكم الخناق قليلاً، فما استجابت، ثم طالبتموها بأن تردّ عليكم بعض حقوقكم الأدبية، فما رضيت، ثم طالبتموها بحقوقكم الطبيعي يقرّكم عليه كلّ إنسان، وهو إرجاع أوقافكم، ومعابدكم، وجميع متعلقات دينكم، فأغلقت آذانها في إصرار، وعتوّ، ثم ساومتهموها على حقوقكم السياسية بدماء أبنائكم الغالية التي سالت على سبيل نصرها فعميت عيونه عن هذا الحقّ الذي يقرره حتى دستورها، ثم هي في هذه المراحل كلّها سائرة في معاملتكم من فظيع إلى أفظع.

أيّها الإخوة الجزائريون الأبطال:

لم تُبق لكم فرنسا شيئاً تخافون عليه، أو تدارونها لأجله، ولم تُبق لكم خيطاً من الأمل تتعللون به، أتحافون على أعراضكم، وقد انتهكتها؟ أم تخافون على الحرمه، وقد استباحتها لقد تركتكم فقراء تلتمسون قوت اليوم فلا تجدونه؟ أم تخافون على الأرض، وخيراتها، وقد

أصبحتم فيها غرباء خُفافة عُراة، جوعاً، أسعدكم مَنْ يعمل فيها رقيقاً، زراعياً يباع معها ويشترى، وحظّكم من خيرات بلادكم التّظر بالعين، والحسرة في النّفس؟ أم تخافون على القصور، وتسعة أعشاركم يأوون إلى الغيران كالحشرات، والزواحف؟ ثم تخافون على الدين؟ ويا ويلكم من الدين الذي لم تجاهدوا في سبيله، ويا ويل فرنسا من الإسلام، ابتلعت أوقافه، وهدمت مساجده، وأذلت رجاله، واستعبدت أهله، ومحت آثاره من الأرض وهي تجهد في محو آثاره من النفوس.

أيّها الإخوة المسلمون:

إنّ التراجع معناه الفناء ... إنّ فرنسا لم تُبقِ لكم ديناً، ولا دنيا، وكلّ إنسان في هذا الوجود البشري، إنّما يعيش لدين ويجيا بدنيا، فإذا فقدهما فبطن الأرض خير له من ظهرها. وإنّما سارت بكم من دَرَكَةٍ إلى دَرَكَةٍ، حتى أصبحت تتحكّم في عقائدكم وشعائركم وضمائركم، فالصلاة على هواها لا على هواكم، والحجّ بيدها لا بأيديكم والصّوم برؤيتها لا برؤيتكم، وقد قرأتم، وسمعت من رجالها المسؤولين عزمهما على إحداث (إسلام جزائري) ومعناه إسلام ممسوخ، مقطوع الصّلة بمنبعه في الشّرق، وبأهله من الشّرقين.

إنّ الرّضى يسلب الأموال، قد ينافي الهمة، والرجولة، أمّا الرّضى يسلب الدّين والاعتداء عليه فإنه يخالف الدين، والرّضى به كُفّر بالله، وتعطيل للقرآن.

إنّكم في نظر العالم العاقل المنصف، لم تثوروا، وإنّما آثارتكم فرنسا بظلمها الشّنيع وعتوّها الطّاغي، واستعبادها لفظيع لكم قرناً وربع قرن، وامتهانها لشرفكم، وكرامتكم وتعديها المريع على مقدساتكم.

إنّ أقلّ القليل ممّا وقع على رؤوسكم من بلاء الاستعمار الفرنسي يوجب عليكم الثورة عليه من زمان بعيد، ولكنكم صبرتم، ورجوتم من الصخرة أن تلين، فطمعتم في المُحال، وقد قمتم الآن قومة المسلم الحُرّ الأبّيّ فنعيدكم بالله، وبالإسلام أن تتراجعوا أو تنكصوا على أعقابكم، إنّ التراجع معناه الفناء الأبدي، والذلّ السّرمدى.

إنّ شريعة فرنسا أنّها تأخذ البريء بذنّب المُجرّم، وأنّها تنظر إليكم مسلمين أو ثائرين نظرة واحدة، وهي أنّها عدوّ لكم، وأنكم عدوّ لها، ووالله لو سألتموها ألف سنة لما تغيّرت نظريته العدائيّة لكم، وهي بذلك مصمّمة على محوكم، ومحو دينكم، وعروبكم وجميع مقوماتكم.

إنّكم مع فرنسا في موقف لا خيار فيه، ونهايته الموت، فاختاروا ميتة لشرف على حياة العبوديّة التي هي شرّ من الموت.

إنّكم كتبتُم البسملة بالدماء، في صفحة الجهاد الطويلة العريضة، فاملأوها بآيات البطولة التي هي شعركم في التاريخ، وفي إرث العروبة، والإسلام فيكم.

ما كان للمسلم أن يخل بماله، أو بمهجته في سبيل الله، والانتصار لدينه، وهو يعلم أنّها قُرْبَة إلى الله، وما كان له أن يرضى الدّنية، إذا رضىها في دنياه.

اخلصُوا العمل، واخلصُوا بصائركم في الله، واذكروا دائماً، وفي جميع أعمالكم، ما دعاكم إليه القرآن من الصّبر في سبيل الحقّ، ومن بذل المنهج، والأموال في سبيل الدين واذكروا قبل ذلك كلّ قول لله: ﴿جاهدُوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم﴾ وقول الله: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله • والله مع الصّابرين﴾.

أيّها الإخوة الأحرار:

هَلُّمُّوا إلى الكفاح المسلّح.

إنّنا كلّما ذكرنا ما فعلت فرنسا بالدين الإسلامي في الجزائر، وذكرنا فضائعها في معاملة المسلمين، لا لشيء إلّا لأنهم مسلمون، كلما ذكرنا ذلك احتقرنا أنفسنا المسلمين وخجلنا من الله أن يرانا، ويراهم مقصّرين في الجهاد لإعلاء كلمته، وكلما استعرضنا الواجبات وجدنا أوجبها، وألزمها في أعناقنا، إنّما هو الكفاح المسلّح فهو الذي يسقط علينا الواجب، ويدفع عنّا، وعن ديننا العار، فسيروا على بركة الله، وبوعونه، وتوفيقه إلى ميدان الكفاح المسلّح، فهو السبيل لواحد إلى إحدى الحُسنيين، إما موتٌ وراءه الجنة وإما حياةٌ وراءها العزّة، والكرامة. والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته).

عن مكتب جمعية العلماء الجزائريين بالقاهرة /محمد البشير الإبراهيمي، الفضيل الورتلاني
القاهرة: 15 نوفمبر⁽¹⁰⁾

● تحليل واستنباط:

إنّ المتأمل في النصّ السابق يسجّل أول نقطة تتعلق بالمحتوى الموضوعي للنثر الإبراهيمي وتتمثل في أنّ صفة الالتزام، والرسالية لا تنفك حقيقة قائمة فيه، إنّ الإبراهيمي مستغرقٌ إلى الأعماق في قضايا أمته، فإذا كتب لا يكتب إلاّ عن حالها، وإشكالاتها وآمالها وإذا عبّر فلا يعبر إلاّ عن حقيقتها، ومقوماتها، ورجالها، وأبطالها، وإذا أفضى بمشاعر فإنما هي مشاعر الحبّ لها، والإشفاق عليها، والحزن على أحوالها. فكأنما هو الأمة إذا نطق فإنما ينطق باسمها، وإذا حدّث عن نفسه حدّث عن حالها، وهكذا حتّى في كتاباته التي يطغى فيه عنصر الذاتية نجده لا يتخلّى عن أمته، فتارة يزيّف أشواقه نحوه، وتارة يذكر ذكرياته في أحضانها، وأخرى يشيد بجمعية علمائها، ويعبر عن أحزانه على ذهاب رجالها. هكذا هو الإبراهيمي في انشغالاته، وعواطفه، وهكذا هو في كتاباته، وعواطفه⁽¹¹⁾.

والملاحظة الثانية التي نسجلها في هذا المجال هي طغيان الموضوعات السياسية والإصلاحية على ما سواها من الموضوعات، وباستخدام المنهج الإحصائي لكشف ذلك ونخرج بالنسب التالية:

أ- المجال السياسي: 49%

ب- المجال الإصلاحي: 44%

ج- المجال العقيدي: 03%

د- المجال الاجتماعي: 03%

هـ- المجال التاريخي: 01%⁽¹²⁾

والتأمل في الخطاب الإبراهيمي السابق والموجه إلى الشعب الجزائري المجاهد، ويعيذهم بالله العزيز القدير أن يتراجعوا، قائلا لهم بعد أن أفشى السلام، وحياتهم الله، وأحيائهم وأحيا بهم الجزائر المحروسة، وجعل منهم نورا يمشي بين يديها، ومن خلفها ... راح الشيخ البشير الإبراهيمي يذكر الشعب بأن العالم كان يسمع بويلات الاحتلال الفرنسي الغاشم لدياره، فيتعجب لذلك ويسأل كيف لهذا الشعب أن لا يثور، وينفض الغبار عن نفسه، ويطرده المذلّة والهوان عن نفسه، ويبعد الاستبداد الجالس على صدره، وكان هذا

العالم يسأل كيف لهذا الشعب يؤثر هذا الموت البطيء، على الموت العاجل المريح، وكانت فرنسا تسوق الشباب إلى المحازر البشرية في الحروب الاستدمارية، فتقتل عشرات الآلاف منهم في غير شرف، ولا محمداً، بل في سبيل فرنسا، وتوسيع ممالكها، وحماية ديارها، ولو أن تلك الآلاف من أبناء الجزائر استشهدوا في سبيل بلادهم الجزائر لكانوا شهداء، وكانوا من السعداء، ومن الذين أحسن الله تعالى خاتمتهم، ورضي عنهم. ثم يذكرهم بغدر فرنسا ومكرها، وخداعها منذ قرن، وربع قرن، أن التاريخ يشهد بأنهم قاوموها مقاومة الأبطال إلا أنها ما رعت في حربها لهم ديناً، ولا عهداً، ولا قانوناً، ولا إنسانية، بل ارتكبت في حقهم كل الوسائل، والأساليب الجهنمية، والوحشية في حقهم. ثم حاربتهم معها، وفي صفها، في سبيل بقائها نصف المدة.

ثم يواصل الشيخ خطابه للشعب قائلاً: طالبتوها بلسان الحق، والعدل، والقانون والإنسانية من أربعين سنة بأن ترفق بكم، وتنفس عنكم الخناق قليلاً فما استجابت ... لو لم تبق لكم فرنسا شيئاً تخافون عليه، ثم يواصل نصيحته للشعب قائلاً: إن فرنسا لكم لم تبق لكم ديناً، ولا دنياً، وكل إنسان في هذا الوجود البشري إنما يعيش لدين، ويحيا بدنياً فإذا فقدهما فإن باطن الأرض خير له من ظهرها، وأن الرضى يسلب الأموال، قد ينافي الهمة، والأنفة، والرجولة، والشهامة، والغيرة، وأن الرضى يسلب الدين، والاعتداء عليه فإنه يخالف الدين، والرضى به كفر بالله تعالى، وتعطيل للقرآن العظيم ...

وإن الشعب الجزائري في نظر العالم العاقل لم يثر، وإنما أثارت فرنسا بظلمها الشنيع وعتوها الطاعني واستعبادها الفظيع لهذا الشعب الراضي بالخنوع، والمذلة، والطغيان ... وأن قانون فرنسا، وشريعتها أنها تأخذ البريء بذنب المجرم، وأنها تنظر إلى الشعب مسلمين أو ثائرين نظرة واحدة، وهي أنها عدو لهذا الشعب، وأنه عدو لها، وثم يقسم الشيخ قائلاً: والله لو سألتها هذا الشعب ألف سنة، لما تغيرت، ولما حادت عن نظريتها العدوانية العدائية لهذا الشعب المحتل الراضي بحكم الاستبداد الفرنسي الطاعني.

وفي الأخير يخاطب الشيخ الإبراهيمي الشعب بقوله: عليكم أن تخلصوا العمل وتخلصوا بصائركم في الله، واذكروا دائماً، وفي جميع أعمالكم، وما دعاهم إليه القرآن الكريم

من الصبر في سبيل الحق، ومن بذل المهج، والأموال في سبيل الدين، وعليهم أن يذكروا في كل حين قوله عز وجل: ﴿جَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ * وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾. إلى أن يقول في خاتمة خطبته ناصحا وموجها الشعب الجزائري بقوله: هلموا إلى الكفاح المسلح، ومحاربة الاحتلال الفرنسي لبلادنا ذلك لأننا لا ننسى ما فعلت فرنسا بديننا الإسلامي في الجزائر، ولا ننسى فظائعها في معاملة المسلمين، وعلينا أن نخجل، ونستحي من الله تعالى أن يرانا مقصرين في الجهاد قصد إعلاء كلمته، وأنه كلما استعرضنا الواجبات، وجدنا أوجبها، وألزمها في أعماقنا، إنما هو الكفاح المسلح، فهو الذي يسقط علينا الواجب، ويدفع عنا، وعن ديننا العار، والذل، والمسكنة، والخنوع.

ثم يوجههم إلى أن يسيروا على بركة الرحمن، وبعونه الكريم، وتوفيقه إلى ميدان الكفاح المسلح، ذلك أنه هو الطريق السديد، والسبيل الواحد إلى إحدى الحُسنيين إما موت وراء النعيم، وإما حياة وراء العزة، والسؤدد، والكرامة، والرفاه.

ومن محتويات كتاب (في قلب المعركة) للإبراهيمي أيضا نجد نصوصا أخرى تنادي بوجوب المقاومة الوطنية ضد الاستبداد الفرنسي من هذه النصوص أذكر منها الآتي:

- * مبادئ الثورة في الجزائر ص 25 من كتاب (في قلب المعركة)
- * أوسع لمعلومات عن بداية لثورة الجزائرية ص 29
- * حول ثورة الجزائر والمغرب العربي ص 37
- * إلى الثائرين الأبطال من أبناء الجزائر والمغرب ص 39
- * ميثاق جبهة تحرير الجزائر ص 43
- * بيان من جبهة تحرير الجزائر عن عزم الحكومة الفرنسية إعلان حالة الطوارئ في الجزائر .. ص 47
- * كيف تنجح الثورة في الجزائر؟ ص 55
- * موالة المستعمر خروج عن الإسلام ص 59
- * الإسلام في الجزائر ص 63
- * الجزائر المجاهدة ص 69

- * عبّرة من ذكرى بدر ص 79
- * الذكرى الثالثة لثورة نوفمبر ص 137
- * يوم الجزائر الثائرة ص 167
- * فرنسا وثورة الجزائر ص 177
- * جهاد الجزائر وطغيان فرنسا ص 195 (13)

ومن النصوص التي تصور حقيقة الاحتلال الفرنسي ضد الأبطال الجزائريين والمصلحين الأحرار نجد حديثاً كتبه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي جوباً على أسئلة مجلة (المصوّر) العصرية، ونشر في سنة 1955 بعنوان (مَنْ أنا؟) في موضوع (موقف الاستعمار متي) حيث يقول: "يقبح بالمجاهد أن يذكر للناس ما أصابه في سبيل الله من بلاء، ولكنني مطلوبٌ بهذا كجزء من تاريخ حياتي، فلا أذكر -على استحياء- لقرّاء "المصوّر" بعض ذلك:

لا أذكر الملاحظات الجزئية، والمضايقات فتلك طبيعة الاستعمار مع كلّ عامل على هواه، وإنما أذكر الكلمات الكبرى، فقد أصدرت الحكومة الفرنسية أمراً باعتقالي في أوائل الحرب العالمية الثانية بدعوى أنّ وجودي خطر على الأمن العام، وتمّ نفيي عسكرياً يوم 10 أفريل سنة 1940 إلى قرية نائية في الجنوب الوهراني، ودام ذلك النفي ثلاث سنوات إلّا قليلاً، ولما أطلق سراحني، وضعت تحت المراقبة الإدارية سنوات إلى أن انتهت الحرب، وفي انتهاء الحرب دبّر المعمّرون مذابح 8 ماي 1945، وفي ليلة 27 منه كبست داري بقوة عسكرية، ففتّشوا منزلي، وساقوني إلى السجن العسكري بالعاصمة، في غسق الليل، وبصورة مزعجة محاطا بقوات أخرى من داري إلى السجن، وبينهما نحو 8 كيلو مترات، ولبثت في زنزانة ضيقة تحت الأرض لا أرى الضوء، ولا أستنشق هواء الحياة نحو سبعين يوماً، وكانوا لا يخرجوني منها إلّا ربع ساعة في 24 ساعة مع حراسة مشدّدة، فلما انهارت صحّتي نقلوني إلى بيت منفرد على وجه الأرض، وفيه بعض وسائل الحياة، ولما أكملت مائة يوم نقلوني ليلاً في طائرة خاصّة مخفّوفاً إلى السجن العسكري بمدينة قسنطينة حيث كان مسرح الحوادث الدامية الفظيعة التي ارتكبتها عصابات المعمرين ضد الأهالي الأمنين، وكان هذا النقل تمهيداً لمحاكمتي في محكمة عسكرية على الحوادث التي دبرها الاستعمار، وأهله، وكنتُ إذا اشتدّ عليّ المرض نقلوني إلى المستشفى العسكري، ومستشفاه أحد عشر شهراً، ولبت في

المعتقلات عشرات الآلاف من رجال الجمعية، وأنصارها، وأتباع الحركات الوطنية مثل تلك المدّة، ثم بدا للاستعمار فأطلق سبيل الجميع باسم العفو العام لا باسم الرجوع إلى الحق.

وبعد خروجنا من السجون، والمعتقلات، وبعد فتح المدارس التي عطّلوها نتيجة لتلك الحكاية المُدبّرة، رجعتُ إلى عملي من تعمير المدارس القديمة، وتأسيس مدارس جديدة حتى بلغت العدد الذي ذكرناه، ونجحت في إحياء اللغة العربية نجاحاً منقطع النظير⁽¹⁴⁾.

"وقد كتب الإبراهيمي مقالات عديدة وطويلة عن الاستعمار الفرنسي، وأفاض الحديث في قضيتين أساسيتين كانتا تمسّان الشعب الجزائري، وتثيران انشغاله، وهما: قضية فصل لدين عن الدولة، وقضية التعليم العربي والحكومة، فقد كتب في الأولى أكثر من عشرين مقالة متسلسلة، وكتب في الثانية أكثر من عشر مقالات، زيادة على مقالات وخطب أخرى يتحدّث فيها عن حقيقة الاستعمار، ومكائده، وجرائمه منها مقالته (الأديان الثلاثة في الجزائر)⁽¹⁵⁾ يقول فيها: "جاء الاستعمار الدّنس الجزائر يحمل: السيف والصّليب ذلك للتمكّن، وهذا للتمكين، فملك الأرض، واستعبد الرقاب، وفرض الجزية وسخر العقول، والأبدان، ولو وقف عند حدود الدنيويات لقلنا: تلك هي طبيعة الاستعمار الجائع، تدفعه الشهوات إلى اللذات فيجري إلى مداها، ويقف، وتدفعه الأنانيّة إلى الحيوانيّة فيلتقم ولا ينتقم، ولكنه كان استعماراً دينيّاً، مسيحياً عارياً، وقف للإسلام بالمرصاد من أوّل يوم، وانتهك حرّماته من أوّل يوم، فابتزّ أمواله الموقوفة بالقهر، وتصرف في معابده بالتحويل، والهدم، وتحكّم في الباقي منها بالاحتكار، والاستبداد، وتدخل في شعائره بالتضييق، والتشديد، كلّ ذلك بروح مسيحية، رومانية، تشعّ بالحق، وتفور بالانتقام، لم يكتف بذلك حتّى احتضن اليهودية، وحمى أهلها، وأشركهم في السيدة ليؤلّبها مع المسيحية على حرب الإسلام، ويجنّدها في الكتائب المغيرة عليه..."⁽¹⁶⁾.

خاتمة:

في نهاية هذه الورقة البحثية يمكن أن أخلص إلى جملة من النتائج أوجّلها في الآتي:

- 1- إن المتحدّث عن صورة المقاومة الوطنية في الأدب الجزائري الحديث (1830-1962) لم يكد يجد في المرحلة الأولى من عهد الاحتلال الفرنسي للجزائر أيّ دور يُذكر للنثر الفني منه، فيما عد بعض الرسائل المتفرقة المحدودة العدد هنا وهناك.

2- يعتبر الإبراهيمي إلى جانب رفيقه في الكفاح عبد الحميد بن باديس من المناضلين الكبار عن الشخصية العربية الإسلامية في العصر الحديث بغير منازع فقد كان المدافع عنها بجرارة، والمنافع من أجلها بكل قوة، والعامل على حفظها وبعثها، وازدهارها ليلاً ونهاراً حتى آخر يوم في حياته، وهو يحلل هذه الشخصية تحليلاً علمياً دقيقاً.

3- الحرية عند العلامة محمد البشير الإبراهيمي لا تعني حقاً فردياً يمارس في حدود الحاجات، والمطالب الفردية، ولكنها قبل كل شيء تعني حقاً جماعياً يشمل كل مظاهر الحرية، من حرية المعتقد إلى ممارسة الحقوق السياسية .. ثم هي بعد ذلك كله مرتبطة عنه بمفهوم حضاري هو مفهوم الحضارة العربية الإسلامية.

4- إنّ الطابع العام الذي يطبع تفكير البشير الإبراهيمي، ومواقفه السياسية هو مقاومة الاحتلال، والاستعباد بواسطة خطط محكمة تندرج في استراتيجية شمولية من جهة وتحكيم النظرة الواقعية العملية في تكييف المراحل التخطيطية السديدة من جهة أخرى.

5- لقد أحسّ الشيخ الإبراهيمي بثقل المسؤولية الملقاة على عاتقه نحو الظلام الاستدماري البغيض الذي كان الشعب الجزائري يعيش تحت ظلّ سواده، فنصّب نفسه مدافعاً عن الأمة الجزائرية، مكافحاً بقلمه، ولسانه ضد عدوّها، بكشف جرائمه، وفضح أساليبه الدنيئة، والخبيثة، والمأكرة، وتصوير حقيقته الشنيعة، وهدم ادعاءاته الكاذبة، حتى يعرف الشعب الجزائري عدوّه على حقيقته، ويصّره على شراسته، ونفاقه، فيأبى الخضوع له، ويسعى بكل ما أوتي من قوة، وطاقة للقضاء عليه، وطرده من وطنه.

6- لا جرم أنّ كتابات الشيخ الإبراهيمي تمثّل ذلك الصّراع العنيف الذي كان قائماً بين جمعية لعلماء، وإدارة الاحتلال، والذي شمل ميادين متنوعة منها ما يتعلّق بحرية الدين وحرية التعليم، ومنها ما يتعلّق بالجرائم التي كان يرتكبها الاحتلال، كما تمثّل موقف جمعية العلماء من الأوضاع، والأحداث التي تجري في العالم الإسلامي، وتضامنها مع كلّ القضايا الإسلامية، والعربية، ومحاربتها لكلّ أشكال الظلم التي تمارس على بلاد الإسلام. وعليه فقد قسّم كثير من المؤرخين الجزائريين موضوعات الإبراهيمي السياسية إلى قسمين: قسم يتعلق بالسياسة الداخلية، وآخر يتعلّق بالسياسة الخارجية.

الهوامش والإحالات

- (1) - ينظر: دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الثورة التحريرية، بقلم علي حمادوش، على الموقع: <http://binbadis.net>
- (2) - ينظر: المقال نفسه على الشابكة، والموقع نفسه.
- (3) - ينظر: الموقع الخاص بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين على الشابكة. وكذا جريدة البصائر، عدد 1062، الأحد 02-08 ماي 2021، الذكرى التسعون لتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين
- (4) - الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد لإصلاح والتربية في الجزائر، تركي رابح، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص43.
- (5) - أدب المقاومة الوطنية في الجزائر (1830-1962) رصد لصور المقاومة في النثر الفني، عبد الملك مرتاض، دار هومة للطبع والنشر والتوزيع، بوزريعة، 2003، ص3-4
- (6) - المرجع نفسه ص4-5
- (7) - المرجع نفسه، ص5-6
- (8) - ابن باديس كلمة صريحة في الشهاب، ج1، المجلد 12، أبريل 1936، نقلا عن أدب المقاومة الوطنية في الجزائر، عبد الملك مرتاض، ص8-9
- (9) - النثر الفني عند البشير الإبراهيمي، عبد الملك بومنجل، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، العلةمة، الجزائر الطبعة الأولى 2009م، ص63-64.
- (10) - في قلب المعركة، محمد البشير الإبراهيمي، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، برج الكيفان، الجزائر طبع الكتاب في 2009 بمطبعة دار النعمان، ص19 وما بعدها.
- (11) - ينظر: النثر الفني عند الإبراهيمي، عبد الملك بومنجل، ص60-61
- (12) - المرجع نفسه، ص61
- (13) - ينظر: محتويات الكتاب (في قلب المعركة) لمحمد البشير الإبراهيمي، ص265-266
- (14) - في قلب المعركة، محمد البشير الإبراهيمي، ص102-103.
- (15) - ينظر: النثر الفني عند البشير الإبراهيمي، عبد الملك بومنجل، ص64.
- (16) - عيون البصائر، ص63-64.